نظامنا الاجتماعي

(٦) الوازع النفسي

أن خير مربٍّ للانسان ضميره او إحساسه او وجدانه أو كما شئت ان تسميه فسمه ذلك اننا شاهدنا نفوساً توالت عليها نصائح المربين وتجارب المؤدبين ووصايا الانبياء والمرسلين فلم تزدد تلك النفوس الاّ طغياناً لانها طبعت على ضرائب الشرّ ولم تصادف تلك النصائح والتجارب والوصايا هوى في أنفسهم

لا ترجع الأنفس عن غيّها ما لم يكن منها لها زاجر

ولذلك كان حقّاً علينا أن نفرد مقالاً للوازع النفسي فنقول

إن في نفسك التي بين جنبيك قوة تحذّرك فعل الشرّ إذا حدثتك به نفسك فاذا أنت فعلته أحسست بعدم ارتياح لعصيانك تلك القوة واذا أنت في تقدم مطرد في سبيل الندم كلما خلوت بنفسك ولا تزيدك الايام إلا آلاماً. لان توبيخ ضميرك لك يشب ويشيب معك. كذلك تشعر بأن هذه القوة تأمرك أن تؤدي الواجب فاذا ما أخذت فيه أغرتك بالاستمرار فيه فإذا ما فرغت منه شعرت بارتياح وفرح

هذه القوة الناهية الآمرة هي الضمير وهي كما علمت تسبق الاعمال وتسايرها وتلحق بها — فتسبق الاعمال بالارشاد الى فعل الواجب والتحذير من الشرّ — وتساير الاعمال بالتشجيع على أتمام العمل الصالح والكف عن العمل الطالح — وتلحق بالاعمال بالارتياح والفرح عند الطاعة في الخير والإحساس بالألم والترح عند اجتراح الشر فالضمير الادبي أو الخلقي ملكة للنفس تحكم بوساطتها بالخير وبالشر

ولا ينبغي الخلط بين هذا الضمير وبين الضمير النفسي فهذا الاخير ندرك به ما يجيش في نفوسنا من الافعال والاحساسات والتأثرات والافكار

أما الضمير الادبي فهو مقياس افعالنا وافعال غيرنا — فالضمير النفسي بمثابة شاهد والضمير الخلقي او الادبي بمثابة قاض

والضمير النفسي مشترك بين الانسان والحيوان الاعجم ويوجد فيهما منذ خلقا ولا ينفك عاملاً ما دامت الحياة

أما الضمير الأدبي أو الخلقي فمخصوص بالانسان ولا يظهر فيه منذ نشأته بدليل ان الطفل يعمل اعمالاً لا يعرف حسنها من قبيحها ولا غرو إذا ألقى بنفسه إلى

التهلكة من حيث لا يدري ولا يظهر فيه ذلك الضمير الا إذا عقل ولا عجب اذا سقطت عنه المسئولية قبل التعقل . وما أشدّ الارتباط بين العقل والضمير فهما من الإنسان بمثابة الأثر والمؤثر. والضمير الادبي هو غايتنا التي هي موطن عناية المربين لأنه يقوى ويضعف وفق العناية بتربيته قوّة وضعفاً

واحكام الضمير الأدبي تصدر إما قبل الفعل وإما بعده الاننا قبل الفعل نستطيع أن نحكم ان هذا الفعل خير أو شر وإذا كان هذا الفعل في قدرتنا فهل يجب علينا عمله او الكف عنه

فمهنة الضمير والحالة هذه مهنة المرشد الذي يهدينا النجدين طريق الخير وطريق الشر — أما بعد الفعل فنستطيع ان نحكم أيضاً ان الفعلة التي فعلتها خير أو شر أيضاً اى روعى فيها الواجب إن كانت خيراً أو لم يراع الواجب إن كانت شراً فينشأ عن ذلك احترام الفاعل او احتقاره ويقوم الضمير هنا مقام قاض عادل يبرىء أو يدين . يمدح أو يذم. يثيب او يعاقب وما أحسن تحكيم الضمير في كل الأمور فانه حكم لا يميل مع الهوى وليس لأحد عليه سلطان. هذا الضمير نشعر به كأنه صوت ينبعث من قلوبنا هو صوت الحق يأمرنا ان نفعل الواجب ويحذرنا مخالفة أمره

ولا يقف في سبيل تنفيذ أمره الا حبّ الشهوات الذي يجعلنا نجترح السيئات ومن أطاع الهوى هوى

تربية الضمير — الضمير ككل الملكات الإنسانية يمكن ان يقوى بالتربية ويضعف بالاهمال وطريق ذلك أن تخالف نفسك اذا حدثتك باجتراح سيئة وتحتمل ما تجده في تلك المخالفة الشريفة من غضاضة أو ألم (إن النفس لأمارة بالسوء) والنفوس تتهافت على المعاصي كتهافت الفراش على النار

كذلك تجنب صحبة الاشرار أو اطالة القراءة في الكتب الساقطة التي تشيك الى الشرور والفضائح والزم صحبة الاخيار وقراءة الكتب القيمة التي تحث على الفضائل وتقص عليك من أنباء اهل الضمائر الحية كعمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وعمر ابن عبد العزيز وصلاح الدين الايوبي

كذلك يربى الضمير بالدين فإن الوازع الديني أشد على النفس من الوازع السياسي لان الاول اساسه الخوف من الخالق جل وعلا والثاني اساسه الخوف من المخلوق

ولا تنكر ان الوازع السياسي لهُ اثر كبير في تربية الضمير الاَّ انهُ لا يصل الى درجة الوازع الديني في هذه التربية ان كانت الديانات مرعية الجانب من نفوس الناس واساس رعيتها مخافة الله تعالى

ومن اجل ذلك كان قانون البلاد مما يساعد على تربية الضمير فانهُ اذا كان صالحاً وامر بما يأمر به العقل والدين كان الانسان أقرب الى الطاعة والانقياد للخير منهُ الى الشر إن لم يكن خيّراً محضاً وكبار المصلحين في كل امة يقوّون الضمائر واجلهم أثراً في تربيتها الرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام فعلى الآباء والمعلمين ان يتعهدوا ضمائر الاحداث فتنمو وأجسامهم وعقولهم في طريق الواجب عملاً وخلقاً وعقلاً

اختلاف الضمير — إن الانسان يختلف ضميره باختلاف زمانه فقد يرى شيئاً خيراً في زمن حتى اذا رقي فكره رآهُ شراً وقد يرى شيئاً شرًّا في وقت ثم يراه بعد ذلك في وقت آخر خيراً والشواهد كثيرة . كذلك يختلف الضمير باختلاف العصور فاذا وازنت بين ضمير امة الآن بضميرها منذ قرنين أو اكثر وجدت فرقاً كبيراً فمنذ قرون كان الاسترقاق مألوفاً وكانت المرأة تعامل معاملة قاسية وما كان الضمير يستنكر ذلك واليوم تستقبح الامة كل ذلك وتعاقب من ارتكب منهُ شيئاً. لأن العقول قد ارتقت فارتقت الضمائر —

مراتب الضمير . (١) شعور الإنسان بضرورة اتباع ما تراه نفسه حقاً سواء أخالف رأي الناس أم وافقهم أخالف القوانين الوضعية المتعارفة عند الناس أم وافقها وهذه المرتبة اقوى المراتب لان صاحبها لا يعمل الا بما يوحيه اليه ضميره وإن كان دون ذلك خرط القتاد

ولا بدّ أن تكون عقول اصحاب هذه المرتبة ناضجة ونفوسهم راقية حتى تكون مخالفتهم للناس في سبيل الخير والصلاح وإلا كانت ضرراً عليهم وعلى أمتهم

وقد تهون نفوس اصحاب هذه المرتبة في سبيل أداء الواجب الذي تأمرهم به ضمائرهم وهذه مرتبة المرسلين وخيرة المصلحين لا يخشون في الحق لومة لائم ويرون أن الفناء في الحق هو عين البقاء كاصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قال الله تعالى في حقهم (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا) فإنهم عملوا بما علموا من الدين القويم فعاهدوا الله على الجهاد اعلاء لكلمة الله وفق ضمائرهم ولم يبالوا بالقتل فجادوا بنفوسهم (والجود بالنفس أقصى غاية الجود)

(٢) شعور الانسان بضرورة اتباع ما تأمر به القوانين سرًّا وعلانية سواء أكانت هذه القوانين خلقية او وضعية وهذه المرتبة من الضمير اقل من المرتبة الاولى السابقة لان صاحبها يلزم نفسه الخضوع للقوانين المعروفة ولو أمن العقوبة — يؤتى كل ذى حق حقّه ولو لم تكن أدلة .ويحافظ على وعده لان الكلمة التى تخرج من فيه كصك كتبته يده وأقره شاهدان واذا حدّث فلا يكذب لأن الكذب عنده يجر الى الرذائل وضميره ينهاه عنها

(٣) شعور الانسان بعمل الواجب خوفاً من الناس وهذا الشعور يحمل كثيراً من الناس على اداء الواجب. قيل لابى جعفر المنصور ان والى مصر يعدل بين الرعية فقال إنه يخافنى ولا يخاف الله — ولا غرابة فالتاريخ ينبئنا أن أبا جعفر كان شديداً على الولاة والعمال ، ولا محل لقبول قول أبى جعفر الا اذا كان والى مصر ظالماً قبل خلافته ثم عدل في خلافته وهذه المرتبة اقل من المرتبتين السابقتين والشواهد كثيرة فكم من جنود لا تفرّ من حومة الوغى خوف العار أو التأديب وكم من الناس من يصدق خشية أن يعرف عنه الكذب فيسقط من عيون عشيرته (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم)

ولهذه المرتبة ضرران

(ا) أن اصحابها يكونون هدفاً للرذائل اذا أمنوا رؤية الناس لهم وخلوا وشهواتهم

(ب) أنهم اذا رموا في بيئة ساقطة لم يخجلوا من اصابة الشرور والقبائح ولم يبالوا بنقد أو زجر فيتغلغلوا في سبيل الغواية ويتكبوا عن طريق الهداية

وقصارى القول ان سعادة العالم متوقفة على الضمائر فإن الامم لا تكون سعيدة حتى يقوم فرادها بواجباتهم وفق ضمائرهم ومعتقداتهم حسب اصول التربية وقواعد الدين فإذا فقدت أمة شعورها هذا فقد فقدت سعادتها وهناءتها ولا قيمة للحياة مع الآلام والشقاء

فلتجعل ضمائرنا فوق كل شئ والحلال بيّن والحرام بيّن والله من ورائنا محيط (إن احسنتم احسنتم لانفسكم وإن اسأتم فلها)

عبد الرحيم محمود
المدرس بمدرسة فؤاد الاول الثانوية والمعلمين الثانوية